بناء النظرية التفسيرية:
رؤية ابن العربي المعافري لتأطير علوم الوحي الثلاث في آيات التوحيد والأحكام والتذكير

د. سومية حكيم
أستاذة عرضية بجامعة مولاي إسماعيل بمكناس
أستاذة بالتعليم الثانوي التأهيلي
أستاذة مؤطره لمناهج تعليم وتدريس العلوم الشرعية بمؤسسات التعليم بهولندا والدول المجاورة
المغرب

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم:

يعد ابن العربي المعافري، من أبرز علماء المالكية في القرن السادس الهجري، وقد أثرى المكتبة الإسلامية بمؤلفات قيمة في مجال التفسير والفقه والعقيدة،

يتناول هذا المقال رؤيته التفسيرية المتكاملة، والتي تجمع بين علوم الوحي الثلاث: التوحيد والأحكام والتذكير، وتكمن أهمية هذه الدراسة في الوقوف على منهجية ابن العربي في الربط بين هذه المجالات الشرعية، وكيف استطاع أن يؤصل نظرية تفسيرية متكاملة تخدم فهم النص القرآني، في الوقت الذي يعاني فيه علم التفسير من فراغ التقعيد والمأسسة، كما تنطلق أصوات غيورة هنا وهناك، منادية بضرورة الالتفات لهذا العلم، والاجتهاد في إيجاد صيغة لتقنينه، وسد ثغراته عن كل دخيل، وجعله علما مستقلا بأصوله وقواعده كسائر العلوم الشرعية الأخرى، ولهذا جاءت هذه الدراسة استجابة لهذه الحاجة العلمية، قاصدة وضع لبنة من تلك اللبنات، لعلها تكون نافعة بحول الله عز وجل.

ويمكن إجمال أهداف هذه الدراسة باختصار في نقطتين أساسيتين:

أولا: تجلية منهج ابن العربي المعافري في تفسيره لعلوم الوحي الثلاث.

ثانيا: الانتقال من رؤية نظرية الى نماذج تطبيقية دالة على رؤيته التفسيرية من خلال كتبه.

فجاءت محاور هذه الورقات ماثلة في الآتي:

المحور الأول: منزلة ابن العربي وجهوده التفسيرية: يتناول هذا المحور مكانة ابن العربي العلمية ومنهجه في التفسير، مبرزاً جهوده في هذا المجال.

المحور الثاني: علوم الوحي الثلاث في رؤية ابن العربي: يتناول هذا المحور كيفية تأطير ابن العربي لعلوم التوحيد والأحكام والتذكير في تفسيره، وبيان ترابطها وتكاملها، مع تطبيقات عملية توضح منهجه المتكامل.

المحور الأول: منزلة ابن العربي وجهوده التفسيرية

نتناول هذا المحور مكانة ابن العربي العلمية ومنهجه في التفسير، مبرزاً جهوده في مجال التأسيس لعلوم التفسير، وذلك باستقراء كتبه، ومحاولة جرد وتتبع نظريته في ذلك عبر ثلاث مباحث كالاتي:

المبحث الأول: ابن العربي المعافري ومكانته العلمية

المبحث الثاني: ابن العربي المعافري ومنهجه في التفسير

المبحث الثالث: ابن العربي المعافري وجهوده في مجال التفسير

المبحث الأول: ابن العربي المعافري ومكانته العليمة

هو محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الله بن أحمد الإمام أبو بكر بن العربي المعافري الأندلسي الحافظ. أحد الأعلام. ولد في شعبان سنة ثمان وستين وأربعمائة، ورحل مع أبيه الى المشرق، ودخل الشام، فتفقه على يد أبي بكر الطرطوشي، ولقي بها جماعة من العلماء والمحدثين"1

ودخل بغداد فسمع بها من طراد الزينبي، ونصر بن البطر وجماعة.

وأخذ الأصلين عن أبي بكر الشاشي، والغزالي، والأدب عن أبي زكريا التبريزي، وحج ورجع إلى مصر والإسكندرية، فسمع بهما من جماعة، وعاد إلى بلده بعلم كثير لم يدخله أحد قبله ممن كانت له رحلة إلى المشرق، وكان من أهل التفنن في العلوم، والإستبحار فيها، والجمع لها، مقدماً في المعارف كلها، أحد من بلغ رتبة الاجتهاد، وأحد من انفرد بالأندلس بعلو الإسناد، ثاقب الذهن، ملازما لنشر العلم، صارماً في أحكامه هيوباً على الظلمة"2

نشأ نشأة علمية على يد والده الذي أولاه أهمية كبيرة، حيث اصطحبه في رحلاته العلمية والسياسية، وقد تلقى ابن العربي دراسته الأولى في موطنه، ثم ارتحل إلى بالد المشرق يطلب العلم، وقد أشار القاضي عياض إلى رحلة شيخه ابن العربي إلى المشرق مع والده".3

شيوخه: تميز ابن العربي بكثرة الشيوخ الذين تتلمذ لهم في مختلف فروع المعرفة الإسلامية من حديث، وفقه، وأصول، وأدب، وشعر، ولغة؛ مما أكسبه سعة اطلاع في هذه العلوم، وهذا نجده واضحا في تفسيره أحكام القرآن، وقد رتب الداوودي شيوخ ابن العربي في البلاد التي ارتحل إليها

تلاميذه: تمتع ابن العربي بسعة المعرفة والاطلاع، وجمع شتى العلوم والمعارف؛ فذاع صيته، وقصده طالب العلم ينهلون من معينه، وقد تتلمذ عليه خلق كثير".[4]

مؤلفاته: صنف ابن العربي في مختلف علوم الشريعة ومعارفها، وعند مطالعة تفسيره يقف القارئ على كثير منها؛ حيث كان ابن العربي يحيل القارئ على بعض مؤلفاته كراهة الإطالة في موضوع لا يسمح المقام ببسط القول فيه".[5] نذكر البعض منها: أحكام القرآن وشرح الموطأ وشرح الترمذي عارضة الأحوذي شر صحيح الترمذي، الإنصاف في مسائل الخلاف، ذكر

أنه يقع في عشرين مجلدا، العواصم من القواصم وهو كتاب مطبوع. وغير ذلك، وولي القضاء ببلده، مات في ربيع الآخر سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة".6

- عقيدته ومذهبه ووفاته:

هو من أهل السنة والجماعة، وهذا يظهر من خلال ردوده على فرق المعتزلة، والجبرية، والقدرية .أما مذهبه الفقهي فهو من أتباع مذهب الإمام مالك بن أنس، وقد أضاف المؤرخون إلى اسمه لقب المالكي".7

أما وفاته: فقد توفي ابن العربي –رحمه الله –في شهر ربيع الأول سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة للهجرة منصرفة من مراكش، وحمل إلى فاس حيث دفن فيها".8

المبحث الثاني: منهجه في التفسير القرآن

أي قارئ لكتب ابن العربي المعافري لا يشك لحظة أن الخط المنهجي الذي يتبناه في كتاباته هو خط أهل السنة والجماعة، ومن سبقه من العلماء الصادقين في تفسيرهم لكتاب الله عز وجل، فهو يتبنى خطاهم، ويسير وفق نهج السابقين الأوائل، فهو يعتمد كثيرا على الرواية والمأثور، ويعتبرهما الأساس في تفسيره، كما يستند إلى أقوال الصحابة والتابعين والعلماء السابقين في استنباط المعاني القرآنية، مع التركيز على فهم القرآن بالقرآن وتفسير بعض الآيات بآيات أخرى.

كما نجده يهتم كثيرا بالجانب الفقهي والأحكام الشرعية، ويوليها عناية كبيرة، خاصة بالجوانب الفقهية والأحكام الشرعية المستنبطة من النصوص القرآنية.

كما يستخدم تفسير الآيات في استنباط الأحكام الفقهية والاستدلال بها، ويهتم بالخلافات الفقهية وآراء المذاهب المختلفة في فهم و تأويل النصوص القرآنية، وهذا ظاهر بجلاء في كتبه خاصة أحكام القرآن، كما سنستدل عليه في موطنه، وقد أبان أثناء تفسيره على قدرته الهائلة على الموازنة بين المعنى اللغوي والمعنى المقصود، كما يولي أهمية للجانب اللغوي في تفسير للقرآن الكريم.

كما يستعين بعلوم اللغة العربية: كالنحو والصرف والبلاغة في فهم وتفسير الآيات، لكنه في الوقت نفسه يربط المعنى اللغوي بالمعنى المقصود والمراد الشرعي.

كذا نجده يعتمد على أقوال العلماء السابقين ويستشهد بآرائهم في تفسيره، ويناقش ويوازن بين مختلف الآراء التفسيرية قبل الترجيح، ويحرص اشد الحرص على عدم الخروج عن الأصول والمرجعيات المعتبرة في التفسير، كما يولي أهمية كبيرة للقراءات القرآنية المتواترة لما لها من أثر في فهم و تأويل النصوص.

هذه أبرز ملامح منهج ابن العربي المعافري في تفسير القرآن الكريم من خلال كتابه، والتي تنطلق من رؤية فقهية سنية مالكية.

المبحث الثالث: جهود ابن العربي المعافري في مجال التفسير

يعتبر ابن العربي من العلماء المجددين الذين تركوا بصمة في تاريخ العلوم الشرعية، وأضافوا إضافات كبيرة للمكتبة، وله جهود متميزة في مجال تفسير القرآن الكريم من خلال كتابه "أحكام القرآن"، ومن أبرز جهوده في هذا المجال:

البحث والاستقصاء: قام بجهود واسعة في البحث والاستقصاء عن الروايات والأقوال المأثورة في تفسير القرآن، استفاد من مصادر وكتب التفسير والفقه القديمة والمعاصرة له، كما ساهم في إثراء المكتبة التفسيرية بما جمعه من روايات وأقوال العلماء السابقين.

التحليل والاستنباط: قام بتحليل النصوص القرآنية وربطها بالجوانب الفقهية والأحكام الشرعية، كما اجتهد في استنباط المعاني والأحكام، من خلال منهجيته القائمة على الرواية والمأثور، وناقش الآراء المختلفة ووازن بينها قبل الترجيح وإصدار الأحكام.

التوسع والتفصيل: تناول ابن العربي المعافري الآيات القرآنية بشكل تفصيلي وموسع، ولم يقتصر على الجوانب اللغوية والبلاغية فقط، بل تعمق في الجوانب الفقهية والأحكام الشرعية، كما ساهم في إثراء المكتبة التفسيرية بتفاصيل وتحليلات لم تكن موجودة في التفاسير السابقة.

الاهتمام بالقراءات والاختلافات: أولى ابن العربي المعافري اهتماما كبيرا بالقراءات القرآنية المتواترة وأثرها في فهم المعاني، كما ناقش الاختلافات الفقهية الناتجة عن اختلاف القراءات القرآنية، ساهم في توضيح العلاقة بين القراءات والاستنباطات الفقهية.

الربط بالسياق والمقاصد الشرعية: حرص ابن العربي المعافري على فهم النصوص القرآنية في سياقها العام وربطها بالمقاصد الشرعية، فلم يكتف بالجوانب اللغوية والبلاغية، بل سعى لإبراز المعاني والأهداف التشريعية للنصوص القرآنية، كما ساهم في ربط النصوص القرآنية بواقع الناس وحياتهم العملية.

وبهذه الجهود البارزة، أثرى ابن العربي المعافري المكتبة التفسيرية الإسلامية بكتابه "أحكام القرآن"، والذي يعد من أهم المصادر التفسيرية للقرآن الكريم من المنظور الفقهي والأحكام الشرعية.

ومن خلالها استطاع نظم نظرية تفسيرية صالحة تأطير علوم القران الثلاث: علم التوحيد وعلم الأحكام وعلم الموعظة، كما سنجلي في المحور الاتي:

المحور الثاني: أصول تفسير علوم الوحي الثلاث في رؤية ابن العربي

يتناول هذا المحور كيفية تأطير ابن العربي لعلوم التوحيد والأحكام والتذكير في تفسيره، وبيان ترابطها وتكاملها.

المبحث الأول: أصول المؤطرة لعلم التوحيد

المبحث الثاني: أصول المؤطرة لعلم الأحكام

المبحث الثالث: أصول المؤطرة لعلم التذكير

المبحث الأول: أصول المؤطرة لعلم التوحيد

أصول التفسير آيات التوحيد عند ابن العربي المعافري باستقراء بعض كتبه في هذا المجال ، نجدها ثلاثة أنواع من العلوم، من خلال دراستنا لها، سنكتشف أهم الأصول المؤطرة والقواعد الضابطة لها، وذلك بالتتبع والاستقراء لبعض الآيات الدالة على الغرض المقصود،

ففي قوله تعالى: {وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم} [البقرة: 163] نجد ابن العربي في تفسيرها يشير الى كونها قد جمعت غرائب: ترهيبين وترغيبين: فالترهيب الأول: يتجلى عنده في "قوله تعالى: {وإلهكم إله واحد} وهو تحذير من التمثيل بالجواهر والأجناس، وتشبيه صفاته بشيء من صفات الناس" وهي إشارة في الاعتقاد، "والترهيب الثاني: وهو التحذير من الرياء في عبادته والشرك به، لانفراده بالإلهية والربوبية والملك.

والترغيبين قوله: {الرحمن الرحيم} لأن فعلان وفعيلان من أبنية المبالغة، فذكر تعالى صفتين موجبتين للترهيب ثم أتبعهما بصفتين موجبتين للترغيب لتعديل الترهيب و"الترغيب"[9] فالترهيب هنا كما أكد ابن العربي: ليجتهد العابدون في خدمتهم، والترغيب لئلا يقنط المذنبون من رحمته، وهذا جوهر عقيدة التوحيد وكماله، ومدار أحكامه.

وكذا وصف نفسه بالإلهية في قوله: {إله واحد} مما يقتضي "استحقاق العبودية"[10] فدل بذلك أن صلاح التوحيد مرتبط بصلاح العبودية، وأن فسادها مرتبط بفسادها، ليخلص أن "هذه الآية أصل في التوحيد" فقصد إليها لبيان المطلوب، وذكر فيها اثنين وعشرين سؤالا، وكلها أسئلة إذا ا تأملناها وجدنا ابن العربي قد صاغها صياغة تعليمية دقيقة، تبين من خلالها كيف فسر ابن العربي آيات العقيدة، والأصول والقواعد التي استعملها لذلك، وهي أسئلة جوابها كما أشار تنفرج أبوابه، وتمتد أطنابه، وليس فيها سؤال إلا ويحتمل مجالس، وأقلها مجلس واحد، ولكنه لاح لنكت من أغراض العلماء يسيرة، تشير إلى ما وراءها من البيان، فنذكر منها أهم ما ركبه عليها من قواعد:

يقول: "فإن كلمة "إلا" موضوعة للاستدراك فيما فات بيانه بالقول الأول، فتخرجه عن ذلك إلى ضده، وفيها تطويل بيانه في كتب "أصول الفقه"،[11]

وهو وجوب دليل التوحيد كما يؤكد،" فإنها دقيقة لم يتفطن لها العلماء، وقد مهدها في موضعها، لبابها: أن ظاهر هذا الدليل يعطيك أنه لو كان في السماوات والأرض، إلهان لفسدتا، وتمامه أن يقال: فهبكم فسدتا، فماذا يلزم عليه؟ وماذا يؤول إليه؟ وماذا ينبني على فساد المخلوقات كلها إذا لم يتعرض ذلك إلى الخالق، ولا عاد عليه".[12]

وهذا سؤال حاد وجهته المعتزلة، إذ كرهت هذه الدلالة لأنها قرآنية وعدلت إلى دلالة الفلاسفة، وهي استحالة الكثرة في العلة.

"والجواب عنه ظاهر، من أعربها ما قصد إليه لسان الأمة- أي الإمام الباقلاني- من أن ذلك يؤدي إلى تناهي المقدورات، وإنما قصد ذلك لأنهم بقولهم: "إن العبد خالق" تتناهى مقدورات الله، فأراد أن ينكاهم في قرحتهم، وأما أنا فأقول بقول غيره، وهو أنه يؤدي إلى سلب القدرة، وإبطال الإلهية، وذهاب الوجودية"،[13] وقد مهده في موضعه،

ثم اعتبر في ختام هذا النموذج المدروس في قواعد التفسير الباطن من القران أنه كفاية أنموذج القانون، ودستور في التأويل.

إذن، ومن خلال المثال السابق، يمكن القول إن ابن العربي المعافري ركز في تفسيره لآيات العقيدة على: مجموعة أصول وقواعد جاءت ضابطة لهذا العلم في باب التوحيد.

أولها نجد التأصيل العقلي: حيث وظف القدرات العقلية والنظر الفكري في إثبات و تأكيد وحدانية الله تعالى، من خلال النظر في ملكوته ومخلوقاته الدالة على وحدانيته، ثم ربط بين النصوص الشرعية والبراهين العقلية في استنباط مسائل التوحيد، مع كراهة اعتماد دلالة المعتزلة، التي تتبنى رؤى الفلاسفة، عازفة عن الدلالة القرآنية الصفية الواضحة.

كما اهتم بالأسماء والصفات وأولاها عناية خاصة، حيث ناقش كما أسلفنا مسائل التوحيد المتعلقة بأسماء الله تعالى وصفاته بتفصيل وتحليل، كما ربط بين عقيدة التوحيد وبين الأحكام والتشريعات الواردة في القرآن، كما حرص على ربط عقيدة التوحيد بالسلوك والممارسات العملية للمؤمنين. وأبرز أهمية التوحيد في توجيه سلوك الناس وتطبيق الشريعة الإسلامية.

وتبقى الآيات التي تناولها ابن العربي في تفسيره للتوحيد في القرآن الكريم كثيرة نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر:

آيات الوحدانية والإفراد: آية الإخلاص (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ) (سورة الإخلاص)- آية النفي والإثبات (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ) (سورة الشورى: 11)- آية الأحد والصمد (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ، اللَّهُ الصَّمَدُ) (سورة الإخلاص)، آيات نفي الشريك والندّ: آية نفي الشريك (وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ) (سورة الإسراء: 111)- آية نفي الصاحبة والولد (وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ) (سورة الإخلاص: 4)

آيات إثبات الربوبية والألوهية: آية إثبات الربوبية (رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) (سورة آل عمران: 189) - آية إثبات الألوهية (لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ) (سورة آل عمران: 18) آيات التنزيه والتقديس: آية التنزيه (سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ) (سورة الأنعام: 100) - آية التقديس (سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ) (سورة النور: 16)

هذه بعض الآيات البارزة التي تناولها ابن العربي في تفسيره لموضوع التوحيد في القرآن الكريم، مركزًا على استنباط الحكم والمقاصد الشرعية المتضمنة فيها، كما ركز في تفسيره على إبراز وتأكيد عقيدة التوحيد الخالص لله تعالى، فقد كان يستنبط من هذه الآيات الأدلة القوية على وحدانية الله وإثبات صفاته الكاملة وإبطال كل ما يخالف ذلك، مع الاستدلال بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية على توحيد الله تعالى وإفراده بالربوبية والألوهية، والتركيز على نفي الشرك بكافة أشكاله، والحث على عبادة الله وحده، وتفنيد العقائد المخالفة للتوحيد كالشرك والتثليث والتجسيم بأدلة عقلية ونقلية، والربط بين عقيدة التوحيد والأحكام الشرعية والأخلاق الإسلامية.

والاهتمام بتوضيح المعاني اللغوية والبلاغية لآيات التوحيد.

وبهذا قدم ابن العربي منهجًا متكاملا في تفسير آيات التوحيد، يجمع بين الجوانب العقدية والشرعية والأخلاقية، مؤكدًا على أن التوحيد هو الأساس الذي يقوم عليه الدين الإسلامي.

وبهذه الأصول والركائز المنهجية، ساهم ابن العربي المعافري في إثراء علم التوحيد و تأصيله انطلاقًا من تفسيره للقرآن الكريم.

المبحث الثاني: أصول المؤطرة لعلم الأحكام

رأينا في المبحث السابق أهم الأصول التي اعتمدها ابن العربي في تفسيره للآيات العقيدة، والقواعد المؤطرة لها، وسنكتشف في هذا المبحث أهم القواعد التي اشتغل بها وهو يتعاطى لتفسير آيات الأحكام، وذلك في قوله تعالى: {يا أيها النبي إنا أحللنا لك أزواجك} [الأحزاب: 50] حيث ذكر فيها سبع عشرة مسألة ضمنها قواعد ضابطة.

أولها: التفسير بالاعتماد ما صح من الأحاديث بيانه في قوله تعالى: {إنا أحللنا لك أزواجك} يقول: " يحتمل أن يريد به أزواجك اللاتي نكحت، وهن أربع وعشرون، بيانها في شرح الصحيح، ويحتمل أن يكون المراد به من تنكح" 14

ثانيا: منهج تفسير القران القرآن: هو منهج أصيل عند ابن العربي ويعتبر من أصول التفسير المعتبرة عنده، نقدم مثالا يوضح ذلك في قوله تعالى: {اللاتي آتيت أجورهن} فسمى الصداق أجرا وجعله عوضا كالبيع، وتحقيق ذلك قد مضى في سورتي "النساء" و"القصص" من كتابنا أعني كتاب "أحكام القرآن"[15] إشارة منه الى تفسير القرآن بالقرآن.

ثالثها: التفسير بقواعد اللغة، وذلك في قوله جل وعلا: {إنا أحللنا لك أزواجك} يقول فيها:" يصح أن يكون خبرا عما مضى، ويحتمل أن يكون إذنا في المستقبل، فإذا كان خبرا عن المستقبل، ففائدته أن الله تعالى أباح نكاح من آتاه أجره من النساء، أو وهب له نفسه، وإن كان خبرا عما مضى، فتكون فائدته الامتنان عليه.."[16] وهذا تفسير منه يوسع المعنى ويعدد مقاصده.

رابعها: تخصيص العموم وذلك بالنظر في السبب، قال تعالى: {وبنات عمك وبنات عماتك وبنات خالك وبنات خالاتك}، فالنبي عليه الصلاة والسلام كل الخلق من النساء مباح له أن يتزوجه، وإنما خص القرابة لوجهين: أحدهما: به أمس وإليه أقرب. الثاني: أن المفسرين قالوا: إن الآية نزلت على سبب، وذلك أن النبي – صلى الله عليه وسلم – خطب أم هانئ بنت عمه أبي طالب، فاعتذرت إليه، ثم أنزل الله: {وبنات عمك ... الآية إلى قوله: اللاتي هاجرن معك} وكانت أم هانئ من الطلقاء فلم يحل الله له ناحها.[17]

خامسا: تفسير بالاعتماد على سبب النزول وذلك في قوله تعالى: {وامرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبي} ذكر في سبب نزولها خمسة أقوال وتحقيق ذلك عنده، أن نزول الآية فلم يرد من طريق صحيح، وهذه الأقوال ليس لها خطم ولا أزمة.[18] وقد روي عن ابن عباس ومجاهد أنهما قالا : لم تكن عند النبي– صلى الله عليه وسلم – امرأة موهوبة ، وروى مالك والأئمة أن امرأة جاءت النبي – صلى الله عليه وسلم – فقالت: يا رسول الله! إني قد وهبت نفسي لك، فقامت قياما طويلا، فقام رجل، فقال: يا رسول الله زوجنيها، إن لم تكن لك بها حاجة. فقال رسول الله: هل عندك شيء تصدقها إياه. فقال: ما عندي إلا إزاري هذا!.....فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: قد أنكحتكها بما معك من القرآن.19 وهذا مثال دال على اعتماده في التفسير على أسباب النزول وقد تكلم على الحديث في سورة النساء والقصص بما يتعلق بالقرآن منه، واستوفاه في شرح الحديث، وهذا هو المقدار منه في ذكر الموهوبة الذي صح نقله وثبت سنده عنده.

سادسها: عند الاختلاف يختا ر الأصح: وذلك الذي أكده في قوله تعالى {خالصة لك}، حيث اختلف العلماء فيه على ثلاثة أقوال: "أحدها: أن يتزوجها بغير مهر ولا ولي، قاله قتادة الثاني : بغير صداق، قاله ابن المسيب ، الثالث : بعقد نكاحها بلفظ الهبة، ولا يجوز ذلك لغيره"20 ثم بين أن: " القول الأول والثاني راجعان إلى معنى واحد، إلا أن الثاني أصح، لأن ذكر الصداق ورد مذكورا في القرآن، ولم يجر للولي ذكر، إلا أنه لما سكت عن الولي، وجرى ذكر الحكم بين الموهوبة والنبي،

مع المعنى الذي قد بينا في سورة البقرة من أن الولي مشروط لفائدة ولسبب هو معدوم في النبي أشبه القول الأول أن يكون مرادا بها هذه القرينة، وقد خص الله رسوله – صلى الله عليه وسلم – في أحكام الشريعة بثلاثة أنواع : الفرض، التحريم، التحليل، ومنها متفق عليه ، ومنها مختلف فيه"[21]

وأما قسم التحريم فجملته عشرة: وفي ذلك كله تفصيل واختلاف، وأما قسم التحليل فخمسة عشر.[22] وقد فصل ذلك بتفصيل في موضعه.

كما راعى في بيانه موارد اللغة والشريعة وانتظام السيا ق والتقدير: وذلك في قوله تعالى: {ما فرضنا} وقد قدمنا قوله: {فرضنا} في موارد اللغة والشريعة بأبلغ بيان، ومنها أن معنى قوله: {فرضنا}: أوجبنا وألزمنا، ومنه قدرنا، وليس يتجه أن يكون معنى قوله تعالى ها هنا: {قد علمنا ما فرضنا عليهم في أزواجهم} بمعنى أوجبنا وألزمنا، لأن منه ما هو وجوب وإلزام، ومنه ما هو تحريم وحظر، وقد جرى ذلك، فلو قلنا إن معنى قوله: {فرضنا} أوجبنا وألزمنا، لرجع ذلك إلى بعض ما تقدم ذكره، واقتضى بيان بعض ما وقع التكليف به في المعنى، فوجب أن يرجع التفسير إلى معنى ينظم الكل ويتناول الجميع وهو قوله: (قدرنا) فإن الذي كتب تعالى وأوجب وألزم مقدر، والذي حرم وحظر ومنع مقدر، والتقدير يأتي على ذلك كله، فيجب أن يقال إن معنى قوله: {قد علمنا ما فرضنا عليهم في أزواجهم} أي قدرنا من فرض، ومحظور وشرط ومشروط.[23]

ثم ذكر في قوله: {وكان الله غفورا رحيما} أن الذي يتعلق به من البيان ها هنا وجه انتظامه مع ما سبق من بيان هذه الأحكام وهو ظاهر عند التأويل، ومعناه: أنه سبحانه لم يؤاخذ الناس بذنوبهم، بل غفر لهم ورحمهم، وشرف رسوله الكريم فجعله فوقهم، ولم يعط الخلق على مقدار ما يستحقون، فإنهم كانوا يجرمون، بل عاد عليهم بفضله ورحمته التي هي خير مما يجمعون، وعمهم برفقه ولطفه فأعطى الكل، ووسع على الجميع، وقدم منازل الأنبياء، وتلتهم الخليقة على مقاديرهم، والله أعلم.[24]

في ختام هذا المبحث يمكن القول: أن ابن العربي المعافري في تفسيره لآيات العقائد قد اعتمد على الكثير من القواعد الضابطة لهذه العملية، والكثير من الأصول التي انطلق منها، واعتبرها منهجا في التفسير، خاصة في مجال الاعتقاد، الذي يشوبه الكثير من المغالطات والانحرافات عند تفسيره، في غياب تلك الضوابط،

وأولها: التزام منهج تفسير القرآن بالقرآن، كأصل من الأصول المعتبرة أثناء التفسير، **ويليها**: اعتماد ما صح من الأحاديث، وتجنب الضعيف والموضوع، لأن مجالها غيبي، والغيب لا يدرك إلا بما صح من القرآن والسنة النبوية، وإجماع علماء الأمة، **ثالثها**: التفسير بقواعد اللغة، وهو منهج منضبط، به تضبط المعاني وتتوسع، وتتعدد المقاصد وتتفرع.

رابعها: الاعتماد على سبب النزول، وتحقيق ذلك عنده، اتباع ما صح طريقه، وصح نقله وثبت سنده عنده. **خامسها**: اختيار الأصح عند الاختلاف. **وسادسها**: اعتماد موارد اللغة والشريعة وانتظام السيا ق والتقدير.

هذه أهم الأصول المؤطرة لآيات الأحكام في تفسير ابن العربي المعافري، وبهذه الأصول والمنطلقات المنهجية، في بناء منظومة فقهية متكاملة انطلاقًا من تفسيره للقرآن الكريم من خلال كتاباته، ليكون ضمن أبرز شراح آيات الأحكام في التراث الإسلامي.

و فيما يلي: بعض الآيات البارزة التي تناولها ابن العربي في تفسيره لآيات الأحكام:

آيات الأحكام الفقهية: آيات الصلاة والزكاة والصيام والحج، آيات المعاملات المالية: كالبيع والربا والقرض، آيات الأحوال الشخصية: كالزواج والطلاق والميراث. آيات الحدود والعقوبات: كآيات القصاص والحدود كالزنا والسرقة. آيات التعزير والجزاءات على المخالفات، آيات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، آيات تنظيم العلاقات الاجتماعية: كآيات حقوق الوالدين والأقارب.

آيات الجهاد والعلاقات الدولية.

آيات الأخلاق والسلوك كآيات الصدق والأمانة والإحسان. آيات الصبر والتوكل والرضا.

وبهذا يكون ابن العربي ضمن أبرز شراح هذه الآيات الفقهية والأخلاقية، حيث قدم شروحا مفصلة واستنباطات فقهية وتطبيقات عملية لها في كتابه "أحكام القرآن".

وهذا الجهد كان له أثر كبير في تطوير علم التفسير والفقه، حيث تميز منهجه في تفسير آيات الأحكام بالشمول والعمق. والتكامل، مستفيداً من أصول الفقه والأدلة الشرعية المختلفة، كما لم يكتف بمجرد استنباط الأحكام، بل كان يربط ذلك بالحكم التشريعي والحكمة من التشريع. فكان يبحث في علل الأحكام وأسرارها وما تحقّقه من مصالح للعباد، وقد برز في منهجه اهتمامه بالقراءات القرآنية والاختلاف الفقهي، متناولاً وجوه الاختلاف والترجيح بينها بعمق وإنصاف.

وبذلك قدّم ابن العربي نموذجًا متكاملاً في تفسير آيات الأحكام، جمع فيه بين الاستنباط الفقهي والتفسير البياني والربط بين النص والواقع والحكمة التشريعية.

المبحث الثالث: أصول المؤطرة لعلم التذكير

علم التذكير هو معظم القرآن الكريم، و ينبني على معرفة الوعد والوعيد، والخوف والرجاء والقرب، والذنوب وما يرتبط بها ويدعو إليها ويكون عنها، وذلك معنى تتسع أبوابه، وتمتد أطنابه في نظر ابن العربي المعافري، وحكمه: أن يؤخذ كل باب منه مفردا، ثم يضاف في البيان إلى نظيره، ولا يمكن شرحه إلا بالمشافهة أو بسط البيان بالقلم، إلا أنا نذكر منها ها هنا أنموذجا في سورة {ألهاكم التكاثر} ولقد تكلم عليها وعلى معانيها في ستة أشهر ، وذلك النشر نظم فيه مجملا في ثمان عشرة مسألة نأخذ منها ما يفيد بيان الأصول التي اعتمدها عند تفسيره لعلم التذكير والموعظة.

المسألة الأولى: إطلاق اللفظ الخاص في قوله: {ألهاكم} اللهو: الاشتغال بالشيء عن الشيء بالقصد، ذكر المؤلف رحمه الله في الأحكام: 1974 أنه أملى في شرح معاني هذه الآية مئة وثمانين مجلسا. ليه، والاشتغال: هو الاشتغال المطلق بترك عمل بقصد وبغير قصد، وعليه يحمل قوله – صلى الله عليه وسلم "اذهبوا بهذه الخميصة إلى أبي جهم، وآتوني بتركية فإنها ألهتني آنفا عن صلاتي" وما يفعل ذلك بقصد إليه، ولكنه جرى كذلك فأطلق عليه اللفظ الخاص ، كقوله "لا حسد إلا في اثنتين" وإنما هو الغبطة الاسم الخاص.[25]

استعمل قول أهل الإشارة للدلال أكثر عمقا عن المعنى المراد الوصول إليه في قوله تعالى: {التكاثر} "وهو التفاعل من الكثرة، يطلب كل واحد أن يكون أكثر من صاحبه في الأموال والأولاد والأحباب، قال أهل الإشارة: اشتغلوا بالأموال عن الأعمال، وبالأولاد عن أهل الوداد، والأحباب عن دار الثواب، وإن القلب إذا كان فارغا امتلأ من الله بالكلية، وإذا اشتغل كله، خرج عن حب الله كله، وإذا اشتغل منه جزء فبذلك القدر يذهب من حب الله، وقد كانت مريم إذا سلمت من صلاتها

وجدت فطرها، فلما ولدت عيسى وأخذ جزءا من قلبها قيل لها: {وهزي إليك بجذع النخلة} [مريم: 25]26 ويتسع الكلام ها هنا كما يؤكد ابن العربي في التكاثر بذكر الآيات والأخبار والآثار في ذكر الأموال والأولاد والأحباب.

كما أشار في قوله تعالى: "شغلكم" انه عدل عنها إلى قوله: {ألهكم} "لأنه أخص به وأكثر ذما لهم. فإن قيل عن أي شيء ألهاكم؟ قلنا: عما قال أهل الإشارة."[27]

أما قوله: {المقابر} وهي الدار الآخرة، والدنيا هي الدار الأولى، وهو حفرة من حفر النار أو روضة من رياض الجنة ، وفيها يقول ضرورة سرد الأحاديث في هذا كله، لدلالة على أن هذا الأمر الغيبي يحتاج للاستدلال عليه من طريق السمع. لينتقل في بيان قوله تعالى: {كلا سوف تعلمون} [التكاثر: 3] معناه: إذا زرتم المقابر، وذلك تهديد عظيم، بما يدرك إذا حل فيه، وتذكر عذاب القبر كله، وأنواع الهول فيه الذي يتعلق بكل واحد منها تهديد.[28]

وقد ذكر اختلاف النحاة والمفسرون، في قوله: {كلا}، والصحيح عنده " أنه نفي، كأنه قال: كل لا، المعنى: ليس كما زعمتم أو أردتم، حيثما وقع وكثر استعماله، فجعلت الكلمتان كلمة واحدة، ونصبت الكاف لتدل الإضافة على التغيير".[29]

وقد اعتمد في الكثير من المواطن على أقوال أهل الإشارة إذا وافق أصول الشريعة وكلياتها خاصة في آيات الموعظة، وذلك في قوله تعالى: {سوف تعلمون}، وقال في موضع آخر: {سيعلمون غدا} [القمر: 26] بالسين وهما عند أهل العربية واحد، وعند أهل الإشارة أنهما بمعنيين، وكأن سوف أمد في المهل، كما قال سبحانه: {فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم} [الحديد: 16]. وتورد ما يناظره ويتعلق به".[30]

كما كان في الكثير من المواطن ينتقد أيضا أقوال وتفسيرات أهل الإشارة، إذا خالفت أصول الشريعة مثاله في قوله تعالى: "{علم اليقين} القول في العلم معلوم، وأقسامه و متعلقاته معروفة، وأما اليقين، فقيل هو المشاهدة، وقيل العلم الذي لا يدركه ريب وإن كان نظريا، وقال أهل الإشارة: اليقين هو العلم الحاصل عن العمل، وقد تقدم الكلام عليهم، وإنما أرادوا به انتفاء الريب فأساءوا العبارة والطريق، وفي الحديث أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال في عثمان بن مظعون: "أما هو فقد جاءه اليقين" والله ما أدري ما يفعل به فكشف – صلى الله عليه وسلم – عن معنى اليقين، والدليل عليه: أن الله فسره فقال: {علم اليقين، لترون الجحيم} [التكاثر: 5 – 6]. وإذا مات ابن آدم عرض عليه مقعده بالغداة والعشي، فهو من يقينه،[31] ثم قال: {لترونها عين اليقين} [التكاثر: 7] ويريد عند الورود، وتفسره، وتورده،[32] والقول فيه إطناب وله أطناب كما يشير ابن العربي

ليختم بقوله تعالى: {ثم لتسألن يومئذ عن النعيم} [التكاثر: 8] وهو ظرف، كما أشار بالقول" وقال بعضهم: لعين اليقين، وقال غيرهم: له ولليقين الأول، وعن النعيم " قيل: هو محمد – صلى الله عليه وسلم –، قاله أهل الإشارة. وقيل: هو تخفيف التكليف بالشرائع : هو الماء البارد في الصيف، والحار في الشتاء. وقيل: الصحة من البدن وقيل: الفراغ ، وقيل: سعة الرزق ، وقيل: القناعة وقيل: الرضاء بالقضاء.[33]

وحقيقته: كل موافق للنفس والبدن دينا أو دنيا، وإذا بسط هذا اتسع مقداره. فإن قيل: هذه طرق طويلة، وبحار متسعة، فكيف السبيل إلى سلوكها وركوبها؟ وأني بالتبليغ نحوها حتى نبلغ إليها ؟ ومن أين يكون وجه القصد إلى هذا القانون.[34]

إذن: في تفسير ابن العربي المعافري للقرآن، يمكن استخلاص أهم الأصول المؤطرة لعلم التذكير التي اعتمد عليها، وهي: التركيز على الجوانب التربوية والتهذيبية، كما سعى إلى استخراج الحِكَم والعِبَر والتوجيهات التربوية من الآيات القرآنية، وربط بين النصوص الشرعية والواقع الإنساني، والسلوكيات والممارسات البشرية، كما أكد على مقاصد الشريعة الإسلامية مع بيان الحِكَم والمصالح التي تسعى الشريعة الإسلامية إلى تحقيقها، والعناية الكبيرة بالجوانب التزكية والتطهيرية للنفس البشرية، كما وظف معرفة أسباب النزول في فهم وتفسير الآيات ذات البعد التذكيري والتربوي، كما حرص على التوازن بين الترغيب والترهيب، أي الموازنة بين الجوانب التشجيعية والتحذيرية في تفسير الآيات،

بهذه الأصول والمنطلقات المنهجية، ساهم ابن العربي المعافري في إبراز البعد التربوي والتزكوي للنصوص القرآنية في كتاباته. خاصة أحكام القران وقانون التأويل.

ختاما يمكن القول: بأن ابن العربي المعافري قد نجح في صياغة رؤية تفسيرية صالحة للتأطير علوم البيان الثلاث: علم العقيدة والأحكام والموعظة.

وقد أوضح رؤيته التفسيرية بأجلي بيان كالآتي: "ولما من الله سبحانه بالاستبصار في استثارة العلوم من الكتاب العزيز حسب ما مهدته لنا المشيخة الذين لقينا، نظرناها من ذلك المطرح، ثم عرضناها على ما جلبه العلماء، وسبرناها بعيار الأشياخ ، فما اتفق عليه النظر أثبتناه، وما تعارض فيه شجرناه، و شحذناه حتى خلص نضاره وورق عراره." [35]

ثم سطر منهج ذلك بالقول: "فنذكر الآية، ثم نعطف على كلماتها بل حروفها، فنأخذ بمعرفتها مفردة، ثم نركبها على أخواتها مضافة، ونحفظ في ذلك قسم البلاغة، ونتحرز عن المناقضة في الأحكام والمعارضة، ونحتاط على جانب اللغة، ونقابلها في القرآن بما جاء في السنة الصحيحة، ونتحرى وجه الجميع؛ إذ الكل من عند الله، وإنما بعث محمد – صلى الله عليه وسلم – ليبين للناس ما نزل إليهم، ونعقب على ذلك بتوابع لا بد من تحصيل العلم بها منها، حرصا على أن يأتي القول مستقلا بنفسه، إلا أن يخرج عن الباب فنحيل عليه في موضوعه مجانبين للتقصير والإكثار، وبمشيئة الله نستهدي، فمن يهد الله فهو المهتدي لا رب غيره". [36]

فهذا هو المنهج الذي سار عليه ابن العربي في تفسيره لنصوص الخطاب الشرعي، وهو منهج إذا تأملناه، وجدناه قد نضمه نظما متسلسلا ودقيقا، حيث ربط الأصول بعضها ببعض، وبين الطرق، وذكر القواعد التي تؤطر عملية التفسير لعلوم: التوحيد والأحكام والتذكير.

وبذلك خلُص هذا المقال إلى أن ابن العربي المعافري قد نجح في بناء نظرية تفسيرية متكاملة تجمع بين علوم الوحي الثلاث: التوحيد والأحكام والتذكير. وقد أظهر كيف أن هذه العلوم الشرعية متداخلة ومتكاملة في فهم النص القرآني، مما يُعد إسهاماً قيماً في مجال التفسير والعلوم الشرعية، كما خلص أيضا إلى أهمية الاستفادة من هذا النهج المتكامل في دراسة القرآن الكريم وفهمه فهماً شاملا.

الهوامش:

[1] – طبقات المفسرين العشرين، عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي 105

[2] – طبقات المفسرين العشرين، عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي 105

[3] – الديباج المذهب في معرفة أعيان المذهب إبراهيم بن علي بن فرحون 254/2

[4] – المرجع السابق.

[5] – المرجع السابق.

[6] – طبقات المفسرين العشرين، عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي 105

[7] – الديباج المذهب في معرفة أعيان المذهب إبراهيم بن علي بن فرحون 254/2

[8] – المرجع السابق.

[9] – قانون التأويل 597/1

[10] – المرجع السابق.

[11] – قانون التأويل لابن العربي المعافري 602/1

[12] – المرجع السابق 605/1

[13] – المرجع السابق 606/1

[14] – قانون التأويل لابن العربي المعافري 607/1

[15] – المرجع السابق.

[16] – المرجع السابق 609/1

[17] – قانون التأويل لابن العربي المعافري609/1

[18] – المرجع السابق 611/1

[19]– المرجع السابق 612/1

[20]– قانون التأويل لابن العربي المعافري617/1

[21]– المرجع السابق 618/1

[22]– المرجع السابق 622/1

[23] – قانون التأويل لابن العربي المعافري 626/1

[24]– المرجع السابق 627/1

[25] – قانون التأويل لابن العربي المعافري 630/1

[26] – المرجع السابق 629/1

[27] – المرجع السابق 629/1

[28] – قانون التأويل لابن العربي المعافري 631/1

[29]– المرجع السابق.

[30] – المرجع السابق 632/1

[31] – المرجع السابق 634/1

[32] – المرجع السابق.

[33] – المرجع السابق 635/1

[34] – المرجع السابق 637/1

[35]– أحكام القران لابن العربي المعافري 3/1

[36] – المرجع السابق. 4/1